تفسير سورة الإنسان

وهي مكية

في صحيح مسلم ، عن ابن عباس : أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في صلاة الصبح يوم الجمعة ﴿الٓمٓ . تنزيل﴾ السجدة ، و﴿ هل أتى على الإنسان ﴾ [1] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ربع ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ۝ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن الإنسان أنه أوجده بعد أن لم يكن شيئاً يذكر ، لحقارته وضعفه ، فقال: ﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً ﴾ ؟

ثم بين ذلك فقال: ﴿ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج ﴾ أي: أخلاط . والمشج والمشيج : الشيء المختلط ، بعضه في بعض .قال ابن عباس في قوله : ﴿ من نطفة أمشاج ﴾ يعني : ماء الرجل وماء المرأة إذا اجتمعا واختلطا، ثم ينتقل بعدُ من طور إلى طور ، وحال إلى حال . وهكذا قال عكرمة ، ومجاهد، والحسن ،والربيع بن أنس : الأمشاج : هو اختلاط ماء الرجل بماء المرأة . وقوله:﴿ نبتليه ﴾ أي: نختبره ،كقوله: ﴿ ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ﴾ [الملك: ٢]. ﴿ فجعلناه سميعاً بصيراً ﴾ أي : جعلنا له سمعا وبصراً يتمكن بهما من الطاعة والمعصية .

وقوله :﴿ إنا هديناه السبيل ﴾ أي : بيناه له ووضحناه وبصرناه به ، كقوله:﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى ﴾ [فصلت:١٧] ، وكقوله:﴿وهديناه النجدين ﴾ [البلد: ١٠]، أي : بينا له طريق الخير وطريق الشر. وهذا قول عكرمة، وعطية ، وابن زيد ، ومجاهد ـ في المشهور عنه ـ والجمهور . وقوله: ﴿ إما شاكراً وإما كفوراً ﴾: منصوب على الحال من « الهاء » في قوله :﴿ إنا هديناه السبيل ﴾ تقديره: فهو في ذلك إما شقي وإما سعيد ، كما جاء في الحديث الذي رواه مسلم ، عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ :« كل الناس يَغْدو ، فبائع نفسه فموبقها أو مُعْتقها » [2] . وروى الإمام أحمد عن أبي هُرَيرة ، عن النبي ﷺ قال : « ما من خارج يخرج إلا ببابه رايتان : رايةٌ بيد مَلَك، وراية بيد شَيطان، فإن خرج لما يُحِبُّ اللهُ اتبعه المَلَك برايته، فلم يزل تحت راية الملك حتى يرجع إلى بيته. وإن خرج لما يُسخط الله اتبعه الشيطان برايته ، فلم يزل تحت راية الشيطان ، حتى يرجع إلى بيته»[3]. وروى الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله : أن النبي ﷺ قال لكعب بن عُجرَة : «أعاذك الله من إمارة السفهاء». قال : وما إمارة السفهاء ؟ قال : « أمراء يكونون من بعدي ، لا يهتدون بهداي ، ولا يستَنُّونَ بسنتي، فمن صَدَّقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم ، فأولئك ليسوا مني ولست منهم ، ولا

(١) مسلم (٨٧٩ / ٦٤) . (٢) مسلم (١/٢٢٣) .

(٣) المسند (٨٢٦٩) وقال الشيخ أحمد شاكر :« إسناده صحيح » .

يَرِدُون على حوضى . ومن لم يصدقهم بكذبهم ولم يُعِنهم على ظلمهم ، فأولئك منى وأنا منهم ، وسيردون على حوضى. يا كعب بن عُجرة، الصوم جنة ، والصدقة تطفئ الخطيئة،والصلاة قربان ـ أو قال: برهان ـ يا كعبَ بنَ عجرة، إنه لا يدخل الجنة لحم نبت من سُحْت ، النار أولى به . يا كعب، الناس غاديان ، فمبتاعٌ نفسَه فمعتقها ، وبائع نفسه فموبقها »[1] .

﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۠ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ۝ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۝ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۝ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ۝ ﴾

يخبر تعالى عما أرصده للكافرين من خلقه به من السلاسل والأغلال والسعير ، وهو اللهيب والحريق فى نار جهنم ، كما قال: ﴿ إِذِ الأَغْلاَلُ فِى أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاَسِلُ يُسْحَبُونَ . فِى الْحَمِيمِ ثُمَّ فِى النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾ [غافر: ٧١ ، ٧٢]

ولما ذكر ما أعده لهؤلاء الأشقياء من السعير قال بعده : ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴾، وقد علم ما فى الكافور من التبريد والرائحة الطيبة ، مع ما يضاف إلى ذلك من اللذاذة فى الجنة. قال الحسن : برد الكافور فى طيب الزنجبيل؛ ولهذا قال: ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾ أى : هذا الذى مُزج لهؤلاء الأبرار من الكافور هو عين يشرب بها المقربون من عباد الله صرفا بلا مزج ويَرْوَوْنَ بها . قال بعضهم : هذا الشراب فى طيبه كالكافور. وقال بعضهم : هو من عين كافور.

وقوله: ﴿ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾ أى: يتصرفون فيها حيث شاؤوا وأين شاؤوا ، من قصورهم ودورهم ومجالسهم ومحالهم . والتفجير هو الإنباع ، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴾ [الإسراء: ٩٠] . وقال: ﴿ وَفَجَّرْنَا خِلاَلَهُمَا نَهَرًا ﴾ [الكهف:٣٣] . قال مجاهد : ﴿ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾: يقودونها حيث شاؤوا ، وكذا قال عكرمة ، وقتادة. وقال الثورى : يصرفونها حيث شاؤوا .

وقوله: ﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴾ أى: يتعبدون لله فيما أوجبه عليهم من فعل الطاعات الواجبة بأصل الشرع، وما أوجبوه على أنفسهم بطريق النذر. روى الإمام مالك، عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال : « من نذر أن يطيع الله فليطعه ، ومن نذر أن يَعصىَ الله فلا يَعصه » ، رواه البخارى من حديث مالك[2] .

ويتركون المحرمات التى نهاهم عنها خيفة من سوء الحساب يوم المعاد ، وهو اليوم الذى شره مستطير ، أى : منتشر عام على الناس إلا من رَحِمَ الله . قال ابن عباس : فاشياً . وقال قتادة : استطار ـ والله ـ شرّ ذلك اليوم حتى مَلأ السموات والأرض . قال ابن جرير : ومنه قولهم : استطار الصدع فى الزجاجة واستطال .

(١) المسند (٣/ ٣٢١) ، وقال الهيثمى فى الزوائد (١٠ / ٢٣٤) : « رجال أحمد رجال الصحيح » .
(٢) البخارى (٦٦٩٦ ، ٦٧٠٠) .

وقوله : ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ ﴾ قيل: على حب الله تعالى . وجعلوا الضمير عائداً إلى الله عز وجل لدلالة السياق عليه . والأظهر أن الضمير عائد على الطعام ، أى : ويطعمون الطعام فى حال محبتهم وشهوتهم له ، قاله مجاهد، ومقاتل، واختاره ابن جرير ، كقوله تعالى: ﴿ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ﴾ [البقرة:١٧٧] ،وكقوله تعالى: ﴿ لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران: ٩٢] . وفى الصحيح: «أفضل الصدقة أن تَصَدَّقَ وأنت صحيح ، شحيح ، تأمل الغنى ، وتخشى الفقر» (١) ، أى :فى حال محبتك للمال وحرصك عليه وحاجتك إليه،ولهذا قال تعالى: ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾. أما المسكين واليتيم،فقد تقدم بيانهما وصفتهما. وأما الاسير : فقال سعيد بن جبير ، والحسن، والضحاك : الأسير : من أهل القبلة . وقال ابن عباس: كان أسراؤهم يومئذ مشركين . ويشهد لهذا أن رسول الله ﷺ أمر أصحابه يوم بدر أن يكرموا الأسارى ، فكانوا يقدمونهم على أنفسهم عند الغداء ، وهكذا قال سعيد بن جبير ، وعطاء ، والحسن ، وقتادة .

وقد وصى رسول الله ﷺ بالإحسان إلى الأرقاء فى غير ما حديث ، حتى إنه كان آخر ما أوصى أن جعل يقول :« الصلاةَ وما ملكت أيمانكم » (٢) . وقال عكرمة: هم العبيد ـ واختاره ابن جرير ـ لعموم الآية للمسلم والمشرك .وقال مجاهد : هو المحبوس ، أى : يطعمون لهؤلاء الطعام وهم يشتهونه ويحبونه ، قائلين بلسان الحال : ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ ﴾ أى : رجاءَ ثواب الله ورضاه ، ﴿ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴾ أى: لا نطلب منكم مجازاة تكافئونا بها ولا أن تشكرونا عند الناس .قال مجاهد وسعيد بن جبير: أما والله ما قالوه بألسنتهم ، ولكن علم الله به من قلوبهم ، فأثنى عليهم به ليرغب فى ذلك راغب .

﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴾ أى : إنما نفعل هذا لعل الله أن يرحمنا ويتلقانا بلطفه، فى اليوم العبوس القمطرير . قال ابن عباس : ﴿ عَبُوسًا ﴾ : ضيقا ، ﴿ قَمْطَرِيرًا ﴾ : طويلا .وقال عكرمة وغيره ، عنه ، فى قوله: ﴿ يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴾ أى: يعبس الكافر يومئذ حتى يسيل من بين عينيه عَرَق مثل القَطِرَان . وقال سعيد بن جبير ، وقتادة : تعبس فيه الوجوه من الهول، ﴿ قَمْطَرِيرًا ﴾ : تقلبص الجبين وما بين العينين ، من الهول .وقال ابن زيد : العبوس : الشر . والقمطرير: الشديد .

وأوضح العبارات وأجلاها وأحلاها ، وأعلاها وأولاها ، قولُ ابن عباس رضى الله عنه .

قال ابن جرير : والقمطرير هو : الشديد ؛ يقال : هو يوم قمطرير ويوم قُماطِر ، ويوم عَصِيب وعَصَيْصَب ، وقد اقمطرّ اليومُ يقمطرّ اقمطرارا ، وذلك أشد الأيام وأطولها فى البلاء والشدة .

قال الله تعالى: ﴿ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴾، وهذا من باب التجانس البليغ ، ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ ﴾ أى : آمنهم مما خافوا منه، ﴿ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً﴾ أى : فى وجوههم ، ﴿ وَسُرُورًا ﴾ اى : فى قلوبهم . قاله الحسن البصرى ، وقتادة ، وأبو العالية ، والربيع بن أنس . وهذه كقوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ . ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴾ [عبس:٣٨ ، ٣٩] .وذلك أن القلب إذا سُرَّ استنار الوجه ، قال كعب بن مالك فى حديثه الطويل : وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ ، استنار وجهه حتى كأنه قطعة

(١) مسلم (١٠٣٢ / ٩٢) .

(٢) المسند (٥٨٥) وقال الشيخ أحمد شاكر :« إسناده صحيح » .

قَمَر. وقالت عائشةُ : دخل عَلَيَّ رسول الله ﷺ مسرورا تَبرُقُ أسارِيرُ وَجْهِه ـ الحديث (١). وقوله : ﴿ وجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا ﴾ أى : بسبب صبرهم أعطاهم ونوّلهم وبوّأهم ﴿ جَنَّةً وحَرِيرًا ﴾ أى : منزلا رحبا، وعيشا رَغَداً ، ولباساً حَسَناً .

﴿ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَـٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَـٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ ﴾ ربع

يخبر تعالى عن أهل الجنة وما هم فيه من النعيم المقيم ، وما أسبغ عليهم من الفضل العَميم فقال: ﴿ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ ﴾. وقد تقدم الكلام على ذلك فى سورة « الصافات». وذكر الخلاف فى الاتكاء: هل هو الاضطجاع ، أو التمرفق ، أو التربع ، أو التمكن فى الجلوس ؟ وأن الأرائك هى السُّرر تحت الحجال . ﴿ لا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلا زَمْهَرِيرًا ﴾ أى : ليس عندهم حَرّ مزعج ، ولا برد مؤلم، بل هى مزاج واحد دائم سَرْمَدِيّ ، ﴿ لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً ﴾ [الكهف:١٠٨] ﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا ﴾ أى: قريبة إليهم أغصانها ، ﴿ وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلا ﴾ أى : متى تعاطاه دنا القطفُ إليه وتدلى من أعلى غصنه، كأنه سامع طائع، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴾ [الرحمن: ٥٤] . وقال تعالى: ﴿ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴾ [الحاقة: ٢٣] .

وقوله: ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ ﴾ أى: يطوف عليهم الخَدَم بأوانى الطعام، وهى من فضة، وأكواب الشراب وهى الكيزان التى لا عرى لها ولا خراطيم. وقوله :﴿ قَوَارِيرَ . قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ ﴾: فالأول منصوب بخبر « كان » أى: كانت قوارير . والثانى منصوب إما على البدلية ، أو تمييز ؛ لأنه بينه بقوله : ﴿ قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ ﴾ .قال ابن عباس ، ومجاهد ، والحسن البصرى ، وغير واحد : بياض الفضة فى صفاء الزجاج ، والقوارير لا تكون إلا من زجاج . فهذه الأكواب هى من فضة ، وهى مع هذا شفافة يرى ما فى باطنها من ظاهرها ، وهذا مما لا نظير له فى الدنيا . وعن ابن عباس : ليس فى الجنة شىء إلا قد أعطيتم فى الدنيا شبهه إلا قوارير من فضة . وقوله : ﴿ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴾ أى : على قدر ريّهم ، لا تزيد عنه ولا تنقص ، بل هى مُعَدّة لذلك، مقدرة بحسب رِىّ صاحبها . هذا معنى قول ابن عباس ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، وقتادة وقاله ابن جرير وغير واحد . وهذا أبلغ فى الاعتناء والشرف والكرامة . وقال العَوفى ، عن ابن عباس :﴿ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴾: قدرت للكف . وهكذا قال الربيع بن أنس . وقال الضحاك : على قدر أكُفّ الخُدّام . وهذا لا ينافى القول الأول ، فإنها مقدرة فى القَدْر والرّى .

(١) البخارى (٣٩٥١ ، ٤٦٧٣) ومسلم (٢٧٦٩ / ٥٣) .

وقوله: ﴿ وَيَسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴾ أى: ويسقون ـ يعنى الأبرار أيضا ـ فى هذه الاكواب ﴿ كَأْسًا ﴾ أى: خمراً ، ﴿ كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴾ فتارة يُمزَج لهم الشراب بالكافور وهو بارد ، وتارة بالزنجبيل وهو حار ، ليعتدل الأمر، وهؤلاء يمزج لهم من هذا تارة ومن هذا تارة. وأما المقربون فإنهم يشربون من كل منهما صرفاً، كما قاله قتادة وغير واحد. وقد تقدم فى قوله: ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ ﴾، وقال ههنا: ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴾ أى: الزنجبيل عين فى الجنة تسمى سلسبيلا. قال عكرمة: اسم عين فى الجنة. وقال مجاهد: سميت بذلك لسلاسة سيلها وحدّة جَريها. وحكى ابنُ جرير عن بعضهم أنها سميت بذلك لسلاستها فى الحَلْق . واختار هو أنها تَعُمّ ذلك كلَّه ، وهو كما قال .

وقوله تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ أى: يطوف على أهل الجنة للخدْمَة ولدانٌ من ولدان الجنة ﴿ مُّخَلَّدُونَ ﴾ أى: على حالة واحدة مخلدون عليها ، لا يتغيرون عنها ، لا تزيد أعمارهم عن تلك السن . ومن فسرهم بأنهم مُخَرَّصُون فى آذانهم الاقرطة، فإنما عبر عن المعنى بذلك ؛ لأن الصغير هو الذى يليق له ذلك دون الكبير . ﴿ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴾ أى : إذا رأيتهم فى انتشارهم فى قضاء حوائج السادة ، وكثرتهم ، وصباحة وجوههم ، وحُسن الوانهم وثيابهم وحليهم ، حسبتهم لؤلؤا منثورا . ولا يكون فى التشبيه أحسن من هذا ، ولا فى المنظر احسن من اللؤلؤ المنثور على المكان الحسن . قال عبد الله بن عمرو : ما من أهل الجنة من أحد إلا يسعى عليه ألف خادم، كل خادم على عمل ما عليه صاحبه .

وقوله : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ﴾ أى : وإذا رأيت يا محمد ، ﴿ ثَمَّ ﴾ أى : هناك، يعنى فى الجنة ونعيمها وسعَتها وارتفاعها وما فيها من الحَبْرَة والسرور ، ﴿ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾ أى : مملكةً لله هُناك عظيمةً وسلطانا باهراً . وثبت فى الصحيح أن الله تعالى يقول لآخر أهل النار خروجا منها ، وآخر أهل الجنة دخولا إليها : « إن لك مثلَ الدنيا وعشرة أمثالها » (١) . فإذا كان هذا عطاؤه تعالى لادنى من يكون فى الجنة ، فما ظنك بما هو أعلى منزلة ، وأحظى عنده تعالى .

وقوله : ﴿ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ﴾ أى : لباس أهل الجنة فيها الحرير ، ومنه سندس، وهو رفيع الحرير كالقمصان ونحوها مما يلى أبدانهم ، والإستبرق منه ما فيه بريق ولمعان ، وهو مما يلى الظاهر ، كما هو المعهود فى اللباس ، ﴿ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ ﴾ وهذه صفة الأبرار، وأما المقربون فكما قال : ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ [الحج:٢٣] .

ولما ذكر تعالى زينة الظاهر بالحرير والحلى قال بعده : ﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾ أى : طهر بواطنهم من الحَسَد والحقد والغل والأذى وسائر الاخلاق الرَّديَّة ، فأخبر سبحانه وتعالى بحاله الظاهر وجمالهم الباطن . وقوله : ﴿ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾ أى: يقال لهم ذلك تكريما لهم وإحسانا إليهم كما قال تعالى: ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾ [الحاقة:٢٤] ، وكقوله: ﴿ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الاعراف:٤٣] . وقوله: ﴿ وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾ أى : جزاكم الله على القليل بالكثير .

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَاذْكُرِ اسْمَ

(١) مسلم (١٨٦/٣٠٨) .

رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾

يقول تعالى ممتناً على رسوله ﷺ بما نزّله عليه من القرآن العظيم تنزيلا : ﴿ فاصبر لحكم ربك ﴾ أي: كما أكرمك بما أنزل عليك ، فاصبر على قضائه وقَدَره ، واعلم أنه سيُدَبرك بحسن تدبيره ، ﴿ولا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴾ أي: لا تطع الكافرين والمنافقين إن أرادوا صَدَّك عما أنزل إليك ، بل بَلِّغ ما أنزل إليك من ربك ، وتوكل على الله ؛ فإن الله يعصمك من الناس . فالآثم هو الفاجر في أفعاله ، والكفور هو الكافر قلبه . ﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ أي : أولَ النهار وآخره . ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴾ ، كقوله : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ [الإسراء: ٧٩]. وكقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ . قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا . نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا . أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴾ [المزمل: ١ ـ ٤] . ثم قال تعالى منكراً على الكفار ومن أشبههم في حُبِّ الدنيا والإقبال عليها والانصباب إليها ، وترك الدار الآخرة وراء ظهورهم: ﴿ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴾ يعني : يوم القيامة .

ثم قال: ﴿ نَّحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد: يعني خَلْقَهم ﴿ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا ﴾ أي: وإذا شئنا بعثناهم يوم القيامة ، وبَدلناهم فأعدناهم خلقا جديدا . وهذا استدلال بالبداءة على الرجعة . وقال ابن زيد ،وابن جرير: ﴿ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا ﴾أي: وإذا شئنا أتينا بقوم آخرين غيرهم ، كقوله: ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴾ [النساء:١٣٣] ،وكقوله: ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ . وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ [إبراهيم: ١٩، ٢٠ ، وفاطر ١٦ ، ١٧] .

ثم قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِ ﴾ يعني: هذه السورة ﴿ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾ أي : طريقا ومسلكا ، أي: من شاء اهتدى بالقرآن ، كقوله : ﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴾ [النساء:٣٩] . ثم قال: ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ أي : لا يقدر أحد أن يَهدِيَ نفسه ، ولا يدخل في الإيمان ولا يجر لنفسه نفعاً ، ﴿ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي : عليم بمن يستحق الهداية فَيُيَسِّرها له ،ويقيض له أسبابها ، ومن يستحق الغواية فيصرفه عن الهدى ، وله الحكمة البالغة ، والحجة الدامغة ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ . ثم قال : ﴿ يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ أي : يهدى من يشاء ويضل من يشاء ، فمن يهده فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له .